براديغـــم مدرســـة فرانكفـــورت على المحـــك: منظـــور إتصـــالي.

The Frankfurt school paradigm at stake: Communicative perspective.

د.كنـــزاي محمد فـــوزي

(جامعة 20 أوت 1955–سكيكدة)

Email : kenzaifaouzi@yahoo.fr

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية العدد 9–2014 ص ص. 102 – 122

الملـــخص

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على أحد أهم التيارات النقدية في علم الإجتماع المعاصر و الممثل في مدرسة فرانكفورت ، و التي مهما قيل عنها تبقى أحد أهم المعاقل الرئيسية التي رافعت فكريا- نقديا- ضد السيطرة الرأسمالية، و حاولت أن تعطي للإنسان حقائق من صنع البشر و ليست حقائق زائفة و مصطنعة من إنتاج أنظمة برمتها تريد أن تحكم قبضتها و تخدم مصالحها الفئوية. في هذا الصدد نبهت هذه المدرسة في إطار مناهضتها لكل أشكال السيطرة الاقتصادية و السياسية إلى الدور الخطير الذي تلعبه و سائل الإعلام وتكنولوجيات الإعلام الحديثة في خلق الصور الذهنية في المجتمع ، تلك الصور التي تصبح فيما بعد منتجة للواقع الإجتماعي و التي بدورها تجعل البشر عبيدا لها بفعل سلطتها و مأسستها في الفضاء العام .

الكلمات المفتاحية: مدرسة فرانكفورت، المجال العام، التكنولوجيا الحديثة، الميديا.

Abstract

This article highlights one of the most important critical streams in contemporary sociology which is represented in Frankfurt school. But whatever was said about it, it remains one of the most important strongholds which stood intellectually and critically against the authority of capitalism. It tried also to provide the human being with man-made facts and not false or artificial productive system as a whole. This latter wants to govern and serve only its interest.

In this regard, Frankfurt school alerted the public opinions about the economic and political dependence and about the harmful role played by the media and the modern technologies. Which lead to the creation of mental images in the society.

Those Images that later become productive in the social reality and turn people into slaves.

***Keywords**: Frankfurt school, Public domain, Modern technologies, the media.*

مقدمة:

تعتبر منظومة النقد الإجتماعي أحد أهم التيارات السوسيولوجية الحديثة التي ما فتأت أن وجدت لنفسها مكانا في الساحة السوسيولوجية و الفكرية الكبيرة مقارنة بنظيراتها كالوظيفية مثلا ، و بالرغم من تعدد توجهاتها و إختلاف تفسيراتها تبقى "مدرسة فرانكفورت" القلب النابض لهذا التيار بما يحمله من معنى لعملية النقد كحركة عقلية واعية تهدف إلى تحرير المجتمع من القيود الأيديولوجية الزائفة ، و المتمثلة أساسا في الرفض القطعي لكل أشكال الرأسمالية التي حاولت السيطرة على البشر و المنظومات بكل ما أوتيت من قوة فكرية و مادية، و ذلك على المستوى الاقتصادي أو السياسي أو التكنولوجي و الذي تمثل في الوقت الحاضر أساسا في حركة التصنيع التي تشهدها المجتمعات المتقدمة بالإضافة إلى إمتلاك الوسائل التكنولوجية الحديثة في مجال الإعلام و الاتصال. على إعتبار أن المجتمع الذي أصبح يمتلك المعلومة هو المجتمع الذي يسير و يقود ، و من ثم أصبح مستقبل البشر مرهون بمثل هذه الرهانات الخطيرة التي حذرت منها تحليلات "مدرسة فرانكفورت" في العديد من المناسبات.

1- مدرسة فرانكفورت: الروافد الفلسفية و الابستميولوجية:

أغلب من يعرفون مدرسة فرنكفورت لا يعرفون عنها إلا إسمها ، و في أحسن الأحوال بعض أعلامها أو بعض الشذرات المفككة الأواصل من أفكارها ، و الحال أن المدرسة حظيت و مازالت تحظى ، بفضل قدرتها الخارقة على تحليل كل من الفكر و الواقع و نقدهما بعيدا عن كل الأغلال الأيديولوجية و بعيدا عن كل دوغمائية عمياء.(الناوي ، 1990 ، ص:2)

لقد تأسس المشروع الفلسفي لمدرسة فرنكفورت سنة 1923 في مدينة فرانكفورت على أنقاض معهد البحوث الإجتماعية و الذي تولـــى تسيير شؤونه فـــي البداية باحث أرثوذكسي (متشدد) للفـــكر المـــاركسي و هو نمساوي الأصل يدعى "كارل كرنبرغ" (Karl grunberg1861-1940) ، و بمجرد حلول عام 1930 تولى "ماكس هوركهايمر" زمام الأمور بالمدرسة ، حيث شجع البحوث المتعددة التخصصات و التي تسترشد بالفلسفة الاجتماعية الماركسية على نطاق واسع ، كما جذبت المدرسة إليها مجموعة متنوعة من المنظرين الماركسيين بما في ذلك "تيودور ادورنو"، "والتر بنيامين" ، "هربرت ماركوز"، "فريدريك بولوك"، "نيومان فرانتز" على الرغم من عدم وضوح ملامح المدرسة في البداية من حيث تبنيها لنظريات و بحوث علمية (Turner, 2006, P.213)

و تعتبر "مدرسة فرانكفورت" حركة مؤثرة في الماركسية المعاصرة حيث كانت تعتمد في المقام الأول على أعمال "ماركس" و لكن هي أيضا مَدِينة لـــ "فرويد" و"ماكس فيبر" فكريا.

تتكون هذه المدرسة من مجموعة من علماء الإجتماع ذوي مصالح و تأثيرات واسعة جدا، إشتغل معظمهم في معهد البحوث الإجتماعية (1923-1950). هذا الأخير كان على علاقة بجامعات متعددة ، و بالتزامن مع صعود النازية آنذاك، إنتقل المعهد إلى جامعة كولومبيا (نيويورك آنذاك) ، حيث قامت "مدرسة فرنكفورت" هناك ببحوث تجريبية هامة بشأن العنصرية و التحيز ، و ذلك بالتركيز في كتاباتهم على نظرية المعرفة و الثقافة و الماركسية ، ثم توجهوا بعد ذلك لدراسة جماهير الموسيقى و الأدب ، الإذاعة، نظرية المعرفة و النظرية الإجتماعية.

(Abercrombie, Hill,Tuner, 2006. P.155)

لقد إعتبر علماء و فلاسفة مدرسة فرانكفورت أعمالهم النظرية جزءا من النضال الثوري ضد الرأسمالية و كان الموضوع الرئيسي لنقدهم هو الإقتصاد السياسي، بمعنى أنهم كرسوا جهودهم لتحليل التناقضات الإقتصادية للرأسمالية و التي يمكن أن تفتح طريقا نحو الإشتراكية ، ولكن مع التغيرات التي طرأت على المجتمع الرأسمالي ، و ما إرتبط بهذه التغيرات من صراعات جديدة وقوى جديدة، تحول إهتمام نقاد "مدرسة فرانكفورت" من التركيز على التناقضات الإقتصادية إلى نقد النظم السياسية و الثقافية للرأسمالية الحديثة.(زايد، 1984، ص:341)

و في هذا المجال دأب المختصون في النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت على تقسيم مراحل تطورها إلى ثلاث مراحل أساسية ؛ المرحلة الأولى التي تأست فيها هذه المدرسة في بداية العشرينات من القرن السابق عندما تَجَمَّعَت مجموعةٌ من الباحثين و على رأسهم "ماكس هوركهايمر" و "فريدريك بولوك" و "فرانتز نيومان" ثم "تيودور أدورنو" و "هربرت ماركوز" الذين يمثلون الجيل الأول لهذه المدرسة الفلسفية، و المرحلة الثانية التي ضمت كل من "يورغن هابرماس" و "كارل أوتو آبل" و "ألبرشت فيلمر" و "كلاوس أوفه"، أما المرحلة الثالثة فيمثلها اليوم "آكسل هونيث" بشكل أساسي و هو رائد الجيل الثالث و مدير معهد الدراسات الاجتماعية بفرانكفورت.(بومنير،2010 ، ص:10)

إن النظرية النقدية هي نظرية لنفسها و للقوى الإجتماعية التي تُشكِل أساسها، وإن العنصر الفلسفي في هذه النظرية هو شكل من الإحتجاج ضد النزعة الإقتصادية الجديدة التي قد تعزل الصراع الإقتصادي، و تفصل المجال الإقتصادي عن المجال السياسي.(ماركوز، 2012، ص: 164)

فهي عند "مارتن جاي" (M.Jay) تحوَلت من نادي "ماركس" قبل هجرتها من فرانكفورت إلى نادي "ماكس" بعد عوْدتها ، وحيث هناك في المهجر فَقَدَ الحرف (R) الذي تبدأ به كلمة الثورة (Révolution) ، و لدى "جان ماري فانسيان" تُمثلُ مواصلةً نحو التقليد العظيم للفلسفة الألمانية ، ونقدا صارما للثقافة البرجوازية الحالية . أما الباحث الأمريكي "ترنت شروير" (T. Schroyer) ، فيرى أن النتيجة التي إنتهت إليها هذه المدرسة تبدو متناقضة مع بداياتها ، أما توم بوتومور (T. Bottomore) فذَكَرَ أنها تمثلُ ظاهرةً مركبةً ، جرَى شرح و تفسير نمط الفكر الإجتماعي الذي إرتبط بها في المقام الأول، فيما يعتبرها "جان جاريدان" (J. Grandin) ، آخر معقل مع الفن لعالم إنساني، يكتفي برسم أَسوَدٍ للتشيؤ الغربي. (بوتومور، 1998، ص ص:13-14) فهي تهدف إلى الإنعتاق، الذي يتم عندما يصبح الأفراد مدركين و مواجهين للقيود المجتمعية، و من ثم فان النظرية النقدية تقدم مزيجا من المعرفة التحليلية التجريبية و المعرفة التأويلية للتوَصل إلى القدرة على التخلص من مثل هذه القيود، و يؤخذ في الإعتبار هنا التحليل النفسي،إذ يوَجه المحلل من يتم تحليله نحو إعادة بناء الذكريات و الخبرات المقهورة، و هو ما ينتج منه تحرر لم يتم تحليله من القهر و ما يرتبط به من أعراض . و في ما يتشابه مع ذلك ، تتناول المادية التاريخية الإنعتاق على مستوى جماعي و ليس فردي يزيد من الوعي النقدي للناس إزاء الظروف المجتمعية القهرية للرأسمالية المعاصرة.(جون، 2009، ص ص: 383-384)

2- موضوعات "مدرسة فرانكفورت" و موقعها من تيارات المنظومة النقدية:

تعطي هذه المدرسة الأولوية في تحليلها للمحيط الثقافي و الإجتماعي الذي تتم فيه عملية الإتصال، و لذلك يطلق عليها البعض إسم " المدخل الإجتماعي الثقافي". حيث تأثرت هذه المدرسة منذ البداية بالفكر الماركسي فكان أتباعها يركزون

أساسا على المحيط الثقافي و الإجتماعي والسياسي والإقتصادي للبلد الذي تتم فيه عملية الإتصال.(دليو ،2003، ص:27) فرغم انطلاقهم من الماركسية كإطار مرجعي إلا أن مواقفهم إختلفت حوْل القضايا المطروحة في المجتمع الرأسمالي، وتراوحت مابين الإلتزام بالماركسية (جرونبرج و فليكس فيل) و الإلتزام النسبي (هور كايمر و أدورنو و هبرماس) و قد إتفقوا جميعا على ضرورة إلتزام مواقف نقدية إزاء مجتمعهم، كما يجمعون على أن الماركسية تمثل الإطار النقدي الأساسي للمجتمع ، إلا هناك تطورات كثيرة طرأت مما كان يستلزم ضرورة إعادة فحص الكفاءة النظرية للماركسية في ضوء المستجدات، و التي لا تقتصر على المجال الإقتصادي فقط، بل تشمل بالضرورة الظواهر الثقافية السائدة و الجوانب النفسية للأفراد.(عبد الرحمن، 2002،ص ص: 21، 22)

إن أغلب الباحثين و المفكرين الذين يُحْسَبُونَ على هذه النظرية تجمعهم نواة نظرية واحدة، حيث عَمَلَ أساسا كل من "ماكس هوركايمر" و "تيودور أدورنو" من جهة، و "هربرت ماركيوز" من جهة ثانية على تأسيسها و تكوين عناصرها، و قد إعتبر مفكروا "مدرسة فرانكفورت" أنَّ تداخل الإختصاصات شرط ضروري، وهذا بدمج إجتهادات الإقتصاديين و المؤرخين و علماء النفس و غيرهم في صياغة أسئلتها.

لقد إعتقدت السوسيولوجية الوظيفية أنَّ وسائل الإعلام هي الأدوات الجديدة للديمقراطية الحديثة، تلعب دورا حاسما في ضبط المجتمع و تنظيمه، و لهذا السبب فهي تستطيع أنْ تدافع عن النظرية التي يمكن بواسطتها إعادة إنتاج قيم النظام الإجتماعي و تثبيت الوضع الراهن.(ماتيلار، 2008، ص:77) على عكس هذه الرؤية فإنَّ النظريات النقدية ترى أن وظيفة وسائل الإعلام هي مساعدة أصحاب

السلطة في المجتمع على فرض نفوذهم و العمل على دعم الوضع القائم، لذلك كانت دراساتهم النقدية للأوضاع الإعلامية و إنتشار "الثقافة الجماهيرية" بديلا عن الثقافة "الراقية" أو "الرفيعة" التي ترتقي بأذواق الجماهير، لوضع تفسيرات خاصة بإنتشار صوَر المحتوى الذي تنشره وسائل الإعلام للترويج لمصالح الفئات أو الطبقات المسيطرة على المجتمع.(عبد الحميد، 2004 ، ص:147) و سواء إعتُبرت النظريات النقدية تتويجا لتفكير مدرسة أو تيار أو أنها عبارة عن نسق إبتدأ أصحابه بالنقد لينتهوا إلى نوع من الإلتزام العضوي بالقضايا التي باشروا بها، فالملاحظ أن ما يميزها عن غيرها هو أسلوب النظر إلى الحداثة و البحث الدائم على آفاق السؤال، لذلك تحول النقد عند أصحابها إلى أداة لمقاومة كل أشكال الاستقطاب، وسمح لهم بالتحرك دون التورط في الإنتماء السياسي المباشر أو الإستجابة لكلمة "أمر" تحصر نشاطهم الفكري أو تضايق نمط سؤالهم.(أفاية ، 1998 ، ص:16-17) وتعد نشأة ثقافة الإعلام نظام آخر من الأدوات الخاصة بالهيمنة و السيطرة العقلية، التي تم تحديدها من قبل كُتاب "مدرسة فرانكفورت"، بالإصرار على أن دور الهيئات الثقافية و التي منها الموسيقى الشعبية و السينما والراديو والتلفزيون والفيديو لها أهميتها في عدم رغبة البشر في القيام بأي شيء سوى الإندماج بشكل سلبي في مساعدتهم و معاونتهم، ومن ثم فإنَّ المنظرين النقديون إشتهروا بإنعزالهم وإبتعادهم عن وسائل الترفيه الشعبية و العامة، بإعتبارها غير إنسانية و عديمة القيمة ، كما إقتنعوا بأنَّ لِلْفَنِ وظيفته الواضحة في جعل الحقيقة الواقعية تافهة ،حيث أنه يُمثل سببا جذريا لتوافق و تسكين شرور المجتمع الحديث، و يقع ذلك على عاتق الثقافة الإعلامية.(جونز، 2010 ، ص: 19)

يوجد عدة تيارات داخل المنظومة النقدية (منظومة النقد الإجتماعي) يجمع بينها رفضها لواقع المجتمع الرأسمالي و هيمنة التكنولوجيا و تعرضها للتطور المستمر، فقد

تطور اليسار الجديد من طلاب الجامعات و المثقفين الراد كليين في أوربا و أمريكا حيث تبنوا العنف في مواجهة النظام بعد أن تأكد لهم رفض النظام لمطالبهم، وحدث نفس التطور لـــ "مدرسة فرانكفورت" حيث انطلقت من عباءة الماركسية واتجهت إلى إجراء البحوث الميدانية استنادا إلى المقولات الماركسية غير أنها انتهت إلى تطوير الأفكار الماركسية و رفض بعضها.(عبد الرحمن، 2002 ، ص: 15)
ونتيجة لذلك تتحدد الخريطة التي تضم جماعات النقد الاجتماعي بصفة عامة كمايلي:(عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17)

- **التيار الأول:** ترجع جذوره الفكرية لمنظور الصراع و آراء وأعمال "كارل ماركس" في منتصف القرن التاسع عشر التي أكدت على الصراع الملازم للمصلحة بين العمال وأصحاب رأس المال.(طلعت،الزيات ،1999، ص:93) أي أن هذا التيار يستند إلى النظريـــة الماركسية في صورتها الكلاسيكية مع بعض التغيرات المحدودة التي فرضتها المتغيرات، و يمثل "جورج لـــوكاش" هذا التيار الذي ركز على البروليتاريا باعتبارها قوة التحول الاجتماعي الرئيسية في تطبيق النظرية النقدية استنادا إلى وعيها الطبقي.(عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17)

- **التيار الثاني:** يقود هذا التيار "رايت ميلز" و قد انتشرت أفكاره على نطاق شامل بين جماعات اليسار الجديد في أوربا و أمريكا و لقد ظهر هذا التيار في الخمسينات في إطار نقد المجتمع الأمريكي، و في معرض تمييزه بين اليسار و اليمين يرى "رايلت ميلز" أن اليمين يعني أن يكتفي الإنسان بما هو قائم في المجتمع، أما اليسار فهو يعني النقد الاجتماعي و البنائي للمجتمع.(عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17) لقد تزايد الاهتمام بنقد المجتمع مع تزايد التصادم بين الواقع المحافظ القديم و بين البناء الجديد الذي جسدته الحركات الاجتماعية و ما ارتبط بها من

اتجاهات فكرية ، ومع تزايد فشل المجتمع و العلم في استيعاب هذه الصراعات وايجاد حل لها.(زايد ،1984، ص:333)

- **التيار الثالث:** انبثق هذا التيار من مدرسة التبعية خلال عقدي الستينات والسبعينات، و يركز هذا التيار على طبقة الفلاحين للقيام بالثورة كبديل للطبقة العاملة الصناعية و ذلك باعتبارهم الثوريين الوحيدين الذي ليس لديهم ما يخسرون، ومن أهم روادها "ماوتسي تونغ" و"تشي قيفارا" و "فرانز فانون". (عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17)

- **التيار الرابع:** هذا التيار ينطلق من الإطار التصوري و المنهجي للماركسية، وأيضا من القوانين العامة للتطور الاجتماعي، و تأتي حداثته من أنا يعيد قراءة الماركسية ، محاولاً توضيح مسارات عمل القوانين النوعية للتطور الاجتماعي ومن خلال المعطيات الجديدة التي يفرزها الواقع الاجتماعي المتغير في المجتمع.(عبد الباسط ، 1981، ص:141) و يضم هذا التيار رواد مدرسة "فرانكفورت" الذين يشغلون التيار الرئيسي للنقد الاجتماعي، الذي حاول تطوير بعض المقولات الماركسية و إسقاط بعضها الآخر و خصوصا تلك التي تتعلق بدور الطبقة العاملة، فضلا عن بعض المقولات التي لم تعد قادرة على تفسير المستجدات العصرية التي فرضتها التغييرات التكنولوجية في مجالات الاتصال والمعلومات والاقتصاد والهندسة الوراثية.(عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17)

- **التيار الخامس:** يتشكل من بعض الجماعات الوجودية و جماعات "الهيبيز" والعودة إلى الطبيعة، ويعتبر هذا التيار نوعا من الاحتجاج الصوفي العاجز عن تأسيس رؤية نظرية، فقد كانوا أول من أعلن الحرب على سيكولوجية الاستهلاك.(عبد الرحمن، 2002، ص:16- 17)

3- لب الجدل في مدرسة فرانكفورت من منظور اتصالي:

إن ظهور و سائل الإعلام الجديدة و وسائل الاتصال الجماهيري و الدور المتزايد للدولة في الاقتصاد أثبتت أن المفاهيم الاقتصاد الماركسي في حاجة إلى إعادة النظر.(Turner, 2006, P.213) والجلي أن الصور المعاصرة من الوسائل التفاعلية التي يُعتقد أن من شأنها إعادة تفويض السلطة إلى الجمهور، و من ثم استعادة نمط أكثر ديمقراطية من الحوار بين مرسلي الرسائل ومتلقيها. (بينيت، غروسبيرغ وميغان، 2010، ص:51) أمر أصبح في خبر كان، هذا ما أشار إليه " ادورنو" على أن الاتصالات تقيم التماثل بين الناس من خلال عزلهم. (هوركهايمر، ادورنو، 2006، ص:120) وفي نفس السياق يشير "يورغن هبرماس" من خلال المجال العام إلى سجال حر بين متساويين وكان ظهور المجتمع البرجوازي في القرن الثامن عشر وأواخر القرن التاسع عشر نتيجة النقاش المفتوح و غير القهري، كما هو واضح في مناقشات القضايا الاجتماعية والسياسية المعاصرة التي كانت تتم بانتظام في الصالونات والمقاهي في المراكز الحضرية الأوروبية، كما أدت وسائل الإعلام دورا محوريا في تطوير ثقافة النقاش المفتوح لكن التحول التجاري اللاحق لها جعلها على وشك التدهور السريع "و إعادة التحول الإقطاعي" للمجال العام. (جون، 2009، ص:381-382) و يعد مفهوم المجال العام واحدا من المفاهيم التي جرى الاعتماد عليها في قراءة العلاقة بين السلطة والمجتمع في المجالات السياسية الحديثة، خاصة بعد أن تمت ترجمة كتاب يورغن هابرماس للإنجليزية "التحول البنائي للمجال العام"، الذي عرّف من خلاله هذا المفهوم، بوصفه فضاء يتجمع فيه الأفراد لتشكيل ما يقترب من الرأي العام حول احتياجات المجتمع من الدولة، و للنقاش حول المسائل العامة بشكل عقلاني.(الربيعو، 2014 ، ص:1)

في هذا السياق عرفه "ألان لوترنو" الفضاء العمومي بأنه يتكون من خواص يجتمعون بهدف التداول في مسائل ذات المصلحة المشتركة و تقوم هذه الفضاءات بدور الوسيط (ليس بالضرورة أن يكون الوسيط فضاء رسمي مثل البرلمان أو مجلس الوزراء أو مقرات الأحزاب... فهو فضاء رمزي و هو بشري و فلسفي قبل أن يكون ماديا اي أنه يتطلب توفر قبلي لفكر حقوقي يضمن لمواطنين الحق في التجمع والتظاهر) بين المجتمع والدولة عن طريق إشهار هذه المداولات و هو فضاء رمزي يعكس حقيقة الديمقراطية التي تعبر عن الآراء والمصالح و الأيديولوجيات المختلفة ، ويفترض أن يتمتع فيه الأفراد باستقلالية تجاه العائلة والقبيلة والحزب حتى يتمكنوا من تشكيل سلطة الكلمة، بدل العنف والاقتتال والصراع وقد طبق " هبرماس" هذه النظرية على الإتحاد الأوربي لبلورة شعور عام بالتضامن بين أعضائه لبناء الدولة الديمقراطية الحديثة، التي لم تعد فيها عناصر اللغة والدين والعرق تشكل أساس الإندماج الجمعي، وإنما الدوافع المشتركة والحوار والتفاهم في إطار مجتمعات ديمقراطية جديدة تقوم على مبادئ دستورية ومدنية.(الشرفي، 2013، ص.14)

إن لظهور المجتمع البرجوازي في النظام الرأسمالي مقدمات تاريخية سابقة و جب علينا التعريج عليها لما لها من دلالات لاحقة في تكوين و تشكيل و وظيفة وسائل الإعلام و الاتصال و كذا الفلسفة التي تحكمهم. إذ يمكن للأفراد المتحررين في المجتمع البرجوازي الذين تتقوض هويتهم الاصطلاحية أن يتماهوا مع مواطنيهم بوصفهم : (هابرماس، 2002 ، ص ص:41-42)

- تابعين للحق الخاص أحرارا و متساوين، أي الفرد البرجوازي كمالك خاص لممتلكاته.
- تابعين أحرارا أخلاقيا ، أي الفرد كشخص برجوازي.

- تابعين أحرارا على الصعيد السياسي ، الفرد البرجوازي كمواطن في دولة ديمقراطية. هكذا تتشكل الهوية الجماعية للمجتمع البرجوازي عبر الجوانب الثلاثة المجردة للغاية الشرعية و الأخلاقية و السيادة:أنها تفصح عن نفسها عبر هذا الشكل على الأقل في انبناءات حديثة تتصل بالحق الطبيعي و في الأخلاقيات الصورية.

نشير في هذا المقام إلى أن هناك منظرين آخرين قاموا بطرح مقاربة جديدة لفهوم المجال العام أمثال أستاذ علم الاجتماع الإيطالي في جامعة نابولي "أرماندو سالفاتوري" في كتابه الذي ترجم للعربية بعنوان "لمجال العام: الحداثة الليبرالية والكاثوليكية والإسلام" و "غريغ كالهون" عبر التأكيد على أن فكرة وجود المجال العام، هي في الأساس ذات مسارات تطورية طويلة الأمد يمكن تتبعها في ثقافات وحضارات أخرى، ولذلك سعوا من خلال هذا الطرح إلى فكرة ضرورة البحث عن محاولات داخل صور مختلفة من التراث، كصور سابقة للفكرة الحديثة للمجال العام ، بمعنى أن "هابرماس" قد فشل من خلال " المنحى البحثي الذي اعتمده، في ملاحظة أن ثمة جذورا مهمة لفكرة المجال العام الحديث تكمن في النظرية السياسية الكلاسيكية وكذلك في الممارسات التراثية، كما أنه قلل من الدور الذي تلعبه والذي لعبه التراث الديني في تكوينه.[1] (الربيعو، 2014 ، ص:1)

[1] اعتمد "هابرماس" في تأكيد أطروحته على خصوصية النطاق العام التي ظهرت في خلفية ما قبل الحداثة الأوروبية، التي شُيد عليها المجال العام البرجوازي، في إطار ازدهار المجتمع المدني والتجاري، الذي ظهر في القرنين السابع عشر والثامن عشر في أوروبا، والتي أدت إلى تصور جديد للمجال العام آنذاك بشكل عبّر عن وجود مجتمع مدني منفصل عن الدولة. ووفقا لهذا التصور ، فان هذه الرؤية اعتقدت بأن المجتمعات المدنية والمجالات العامة خارج أوروبا الغربية، لم تستطع أن تتطور نظرا إلى خضوعها لتقاليد الدولة المستبدة أو بسبب الثقافة الدينية التي تحُول دون مقاومة المجتمعات لتلك الدول القمعية.

و من هذا المنطلق فان النظرية النقدية ركزت أدوات و وسائل السيطرة العقلية الذهنية كمفتاح النجاح في الرأسمالية و بالنسبة لها فإنها توجه ثلاث ملامح لثقافة الرأسمالية في وظيفة محددة لهذه الوسائل.(جونز،2010، ص: 18-19) والتي يمكن اعتبارها(الملامح) المحددات المنهجية التي تسترشد بها مدرسة فرانكفورت و هي كالآتي:

- **العقل الأدائي** ولقد ظهر ذلك المنهج في دراسات الكثير من رواد هذه المدرسة ويقصد بالعقل الأدائي، أنه منطق في التفكير وأسلوب رؤية العالم، ومعرفة علاقة الأشياء ببغضها البعض.(عبد الرحمن عبد الله، 2006، ص:440) ويسمى السبب الأدائي أو الوسيلي والذي تم وصفه بواسطة "جرايب، 1984" على أنه طريقة النظر للعالم الذي يبرر سيطرة الأفراد أحدهم على الآخر وسيطرة النظام على تخدير وتغييب الأفراد.(جونز، 2010، ص:18-19) في هذا المجال إن النموذج البراغماتي حسب "يورغن هابرماس" لا يمكن أن يتكوَنَ مستقلا عن التواصل وهو يتمأسس في الشكل الديمقراطي في حوارات عامة في جمهور مواطني الدولة.(هابرماس، 2003، ص:120)
- **أسلوب دمج الثقافة بالنظام الاجتماعي.**(عبد الرحمن عبد الله ، 2006، ص:440) و يكون عن طريق دور الإعلام أو الثقافة الشعبية في عمليات التفكير للأفراد و من ثم تحويلهم إلى عدم القدرة على نقد المجتمع الذي يعيشون فيه.(جونز، 2010، ص:18-19)
- **طبيعة البنية الشخصية التي شُكِلَّت من خلال النظام.**(عبد الرحمن عبد الله، 2006، ص:441) عن طريق سيطرة وانتشار نمط معين من الشخصية الذي لا

يقبل فقط السيطرة أو الهيمنة ولكنه كذلك يرغب بالنشاط بها. (جونز، 2010، ص:18-19)

في هذا الإطار صاغ "هوركايمر" و "أدورنو" إشكالية على غاية من الأهمية مفادها السؤال الآتي: ما هي حدود وفوائد آثار التكنولوجيات الحديثة للاتصال؟ الأمر الذي دفع المنظران أن ينشغلا بالإنتاج الصناعي للمواد الثقافية، إذ تعد الصناعة الثقافية في نظرهم نموذجا ناجحا لإفلاس الثقافة وسقوطها في التسليع، وإن تحول الفعل الثقافي إلى قيمة تجارية يقضي على قدرته النقدية، فالأمر يصبح جليا هنا، هو ضرورة الربط بين التكنولوجيا والثقافة والسلطة والاقتصاد وبذلك محاولة اكتشاف مجموعة من الروابط المتشابكة والمعقدة في مجال الاتصال. (لعياضي، 1999، ص:106)

وتُعْنَي الثقافة المصنعة، أي الثقافة المصطنعة التي ينتجها النظام إنتاجا، و هي ثقافة زائفة تقف في مقابل الثقافة الشعبية الحقيقية الناتجة تلقائيا من تفاعل البشر ببعضهم البعض في إطار المجتمع، وإن إمكانية أن يمر الإنسان بتجربة الحاجات الزائفة هي فكرة متأصلة في النظرية النقدية ، فالحاجة الحقيقية هي الحاجة التي تنبع من القوى المبدعة والعقلانية التي تجعل منا كائنات بشرية أو تعبر عنها، أنها الحاجة التي سوف تمكنني من تعميق علاقتي مع بالآخرين و تثريهم. (كريب، 1999، ص:286-302)

لقد روجت هذه المدرسة للأشكال المتنوعة من الثقافة الرفيعة مثل السيمفونيات والفنون الكلاسيكية الأدبية، ورأت أن الثقافة الرفيعة شيء يملك كل مقومات كماله ولا يمكن أن تستخدمها الصفوة لمجرد تعزيز قوتهم الشخصية، و لذلك فإنهم شككوا في تقديم هذه الثقافة من خلال وسائل الإعلام.(عبد الحميد، 2004، ص: 150) من خلال اهتمامهم بنقد وسائل الإعلام التي تحاول إعادة إنتاج الفن العظيم

القديم كالروايات وغيرها.(طه ، 2008، ص:76) وبالتالي فان مدرسة فرانكفورت عكفت على نقد لثقافة الجماهير المبتذلة و الموظفة التي تختزل الثقافة إلى السلعة معايرة , و تختزل المستمع إلى انقياده الامتثالي و المغتبط ، من التسامي الى الكبت، ونظرت اليها كأداة للسيطرة الايديولوجية ولم يتردد" تيودور ادورنو" و"هوركهايمر" في تأكيد أن الراديو بالنسبة للفاشية يشبه ما كانته المطبعة بالنسبة لعصر الإصلاح الديني. (كابان ، دوروتيه ،2010 ، ص ص: 190-191)

واعتبروا أن ما تقدمه و سائل الإعلام عبارة عن أعمال وضيعة أو تشويه للأعمال الراقية هدفها إلهاء الناس على البحث عن الحقيقة، فمن خلال التجارة العالمية والثقافة الجماهيرية ينجح الاحتكار الرأسمالي في تحقيق أهدافه،حيث تكون السلعة هي الأساس والثقافة يمكن تسويقها أيضا لتحقيق الربح و هي تعمل من خلال مفهوم صناعة الثقافة على ترسيخ الأفكار الخاصة بسيطرة الطبقة المالكة أو المهيمنة على المجتمع بمفهومه الرأسمالي.(مكاوي، السيد ليلى،2001، ص: 120-121) وهكذا يمتد التسليع (commodification) من الملكية المادية إلى الملكية غير المادية وإلى تلك الممتلكات و الفعاليات التي اعتُقد سابقا أنها غير قابلة للتغريب، و ليس الاتِجَار بالرياضة خلال السنين العشرين الماضية أو ما يقاربها سوى مثال واحد على هذه العملية، و ترخيص منتوجات الطبيعة هو مثال آخر و أنه لفي علاقة مع مثل هذه العمليات انتقل مفهوم "التسليع" من التقليد الماركسي إلى استعمال عام، وربما اِنْصَبَ جل الاهتمام المركزي على ميدان الثقافة وما سماه "ادورنو وهوركهايمر" بصناعات الثقافة، ذلك أن نمو أسواق الجملة في الإعلام والمذياع والتلفاز والصحافة والكتب الورقية قد عزز حس التشاؤم من جهة بأن الإنتاج المُصنّع للأشكال الثقافية يُفضي إلى أعمال مبتذلة، نمطية، غير ذات قيمة جماليا. (بينيت، غروسبيرغ وميغان، 2010، ص:394-395) إن الحضارة التي تمارس طقس

النجوم تحتاج كمكمل للشهرة إلى آلية اجتماعية تحدد مستوى كل ما يثير الانتباه، فالنجوم ليست إلا النماذج التي تستخدمها مشروعات المعامل ذات الأبعاد العالمية ومقص العدالة الشرعية والاقتصادية التي تستبعد أطراف الخيوط المرئية. **(**هوركهايمر، أدورنو ، 2006، ص:284**)**

إن هذه الأفكار – من وجهة نظر رواد مدرسة فرانكفورت- هي التي تفسر الفشل الواضح للتغيير الثوري الاجتماعي الذي توقعه " كارل ماركس " و ذلك لتأثير البنية الفوقية على وسائل الإعلام و توجيهها في الطريق الخطأ.

4- أجندة و إسهامات مدرسة فرانكفورت في مجال الإعلام و الاتصال:

تتفق الدراسات النقدية مهما تعددت اتجاهاتها على أجندة واحدة تحدد من خلالها العلاقة و الارتباط بين وسائل الإعلام و القوى السياسية و الاجتماعية في الآتي: **(**مكاوي، السيد ليلى، 2001، ص: 119-120**)**

- دراسة محتوى وسائل الإعلام على المستوى الأوسع بدلا من نماذج التأثير المباشر التي تعتمد على عوامل (مثير/استجابة).

- التأكيد على قوة وسائل الإعلام الفكرية و الثقافية مع توضيح موقف الهيمنة من خلال الطريقة التي تقدم بها العلاقات الاجتماعية و المشكلات السياسية التي يتم تحديدها.

- تحدي النظريات الخاصة بالنص الإعلامي بوصفه تقديما واضحا للمعنى مع إعطاء اهتمام اكبر للبناء اللغوي و الفكري أكثر من مجرد تحليل المحتوى التقليدي.

- التأكيد على العلاقة بين ترميز الرسائل الإعلامية و تباين تفسيرات الجمهور بدلا من مفهوم الجمهور الموحد الذي اتفقت عليه الدراسات التقليدية بتأثير المسوح

الخاصة بالمؤسسات الإذاعية ووكالات الإعلان.(عبد الرحمن عبد الله، 2004، ص:156)

إن رصد إسهامات "مدرسة فرانكفورت" في مجال الإعلام و الاتصال يمكن ملاحظة الآتي: (عبد الرحمن، 2002،ص ص: 92- 94)

- إن مدرسة فرانكفورت في نقدها للمجتمع و تبنيها لمصطلح "التغيير الاجتماعي" تمثل إسهاما هاما في تاريخ البحث العلمي في العلوم الاجتماعية بصفة عامة و على الأخص في مجال الثقافة و البحوث الإعلامية و الاتصالية، فالمدخل النقدي يبين أهمية رؤية الاتصال الجماهيري من خلال منظور اجتماعي و من خلال تقييم شامل لظروف المجتمع الرأسمالي.

- يوضح مدخل "مدرسة فرانكفورت" الطبيعة العامة للدور المسيطر و الضاغط الذي تلعبه وسائل الاتصال الجماهيرية في انتهاك حرية الأفراد و حرية التعبير.

- أسهمت في تعرية السلطة في المجتمعات الرأسمالية و الكشف عن دورها في طمس الفروق الاجتماعية و تزييف وعي الجماهير بآليات القهر الاجتماعي و الثقافي.

- أثبتت في مجال البحث الاتصالي و الواقع أن النظرية النقدية تكشف العلاقة الجدلية بين النظرية و الواقع الاجتماعي و تعكس الإدراك العميق لطبيعة الحقيقة الاجتماعية و العلاقة الجدلية بين الإنسان و الحقيقة الاجتماعية، لهذا فإنها تعد المدخل الملائم لبحوث الاتصال.

- أسهمت النظرية النقدية في نفاذها إلى جوهر الممارسات الايجابية و السلبية للمجتمع الرأسمالي و الكشف عن دور وسائل الاتصال في المحافظة على هذا النظام.

- أسهمت في مجال وسائل الاتصال بصفة خاصة عن حقيقة البحث التقليدي الذي يعمد إلى عزل وسائل الاتصال عن السياق الشامل الذي تعمل في إطاره.

- أكدت على انه لا توجد نظريات أو مناهج عامة يمكن تطبيقها على كل الظواهر الاجتماعية و تحت كل الظروف و على الباحثين أن يضعوا في الاعتبار الطبيعة النسبية التي تنبع من مضمونها الخاص المؤقت.

-تسعى النظرية النقدية إلى كشف الجوانب الأيديولوجية التي تكمن خلف النظام المؤسسي كما تسعى إلى الكشف عن الوعي المزيف الذي تقدمه و تروج له وسائل الإعلام في المجتمعات الرأسمالية.

الخاتمـــــة:

مهما قيل عن أفكار هذه المدرسة فلا شك أننا نشعر بقوة الأطر المنهجية و المنظومة الابستمولوجية للأفكار النقدية التي طرحتها طورتها في الساحة العلمية بالإضافة إلى أنها استطاعت تصميم براديغم(أنموذج) يُمَكِّنْ الباحثين من معرفة درجة التحكم و السيطرة على المجتمعات و لو من الناحية النظرية بالرغم من صعوبة التنبؤ تطبيقيا و أمبريقيا. إن أفكار هذه المدرسة يمكن خندقتها ضمن التراث السوسيولوجي المعاصر المتميز بالإبداع النقدي و الذي من الممكن أن يستمر في المستقبل كما تنبأ له العديد من الباحثين.

مراجع الدراسة:

1- أفاية ،م. (1998). الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصر "نموذج هابرماس"، لبنان ، إفريقيا الشرق.

2- الربيعو،م .(نوفمبر 2014)، في نقد أطروحة هابرماس حول جينالوجيا المجال العام الحديث : علاقة العلماء بالسلطة في المدينة الإسلامية نموذجا، في :

http://www.alquds.co.uk/

3-الشرفي. س ، الإعلام العمومي و الفضاء العمومي لا يستقيم الواحد منهما و عود الآخر أعوج ، معهد الصحافة و علوم الإخبار،مؤسسة كونراد أديناور،وسائل الإعلام العمومية العربية و عمليات التحول الديمقراطي ، أشغال الملتقى الدولي 26 و 27 أفريل منشور عن مطبعة سانباكت، تونس ، 2013.

4-بوتومور،ت. (1998). مدرسة فرانكفورت ، ترجمة سعد هجرس، ليبيا ، دار أوبا للطباعة و النشر و التوزيع .

5- بومنير، ك. (2010). النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت: من ماكس هوكهايمر إلى آكسل هونيث، لبنان- الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون- منشورات الاختلاف.

6- بينيت، ط ، غروسبيرغ، ل و ميغان، م. (2010) ، مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة و المجتمع ، ترجمة سعيد الغانمي ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة .

7- جون،س. (2009). خمسون عالما اجتماعيا أساسيا:المنظرون المعاصرون ، ترجمة محمود محمد حلمي، بيروت ،الشبكة العربية للأبحاث و النشر.

8- جونز،ف. (2010). النظريات الاجتماعية و الممارسات البحثية ، ترجمة محمد ياسر الخواجة، القاهرة ، مصر العربية للنشر و التوزيع.

9- ليو،ف. (2003) الاتصال ، مفاهيمه ، نظرياته ، وسائله، القاهرة ، دار الفجر للنشر و التوزيع.

10- زايد، أ. (1984). علم الاجتماع : النظريات الكلاسيكية و النقدية، القاهرة ، دار الكتب المصرية.

11- طلعت،ا. الزيات،ك.(1999) ،النظرية المعاصرة في علم الاجتماع، القاهرة ، دار غريب.

12- طه ،ن. (2008)، الاتصال الجماهيري في المجتمع العربي الحديث: الموضوع و القضايا، القاهرة .

13- عبد الباسط،م. (1981) اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، الكويت ، عالم المعرفة ،، العدد 44 ،

14- عبد الحميد،م. (2004). نظريات الإعلام و اتجاهات التأثير، القاهرة ، عالم الكتب.

15- عبد الرحمن عبد الله،م. (2006) ، النظرية في علم الاجتماع:النظرية الكلاسيكية ، مصر، دار المعرفة الجامعية .

16- عبد الرحمن عبد الله،م. (2004) ، سوسيولوجيا الاتصال و الإعلام:النشأة التطورية الحديثة و الدراسات الميدانية، القاهرة .

17- عبد الرحمن،ع. (2002) النظرية النقدية في بحوث الاتصال، القاهرة، دار الفكر العربي.

18- كابان،ف ، دوروتيه ج.ف. (2010).علم الاجتماع: من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية أعلام و تواريخ و تيارات، ترجمة إياس حسن، سوريا ،، دار الفرقد.

19- كريب، ا. (1999) ، النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس،ترجمة محمد حسين غلوم، الكويت ، عالم المعرفة.

20- لعياضي، ن. (1999) ، وسائل الاتصال الجماهيري و المجتمع: أراء و رؤى (مجموعة دراسات مترجمة)، الجزائر، دار القصبة للنشر.

21- ماتيلار،أ و ماتيلار،م. (2008). نظريات الاتصال، ترجمة أديب خضور، دمشق ، المكتبة الإعلامية .

22- مكاوي، ح. ع ، السيد ليلى، ح. (2001) ، الاتصال و نظرياته المعاصرة، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية.

23- ماركوز، هــ. (2012). فلسفات النفي: دراسات في النظرية النقدية، ترجمة جاهد عبد المنعم مجاهد، القاهرة ، مكتبة دار الكلمة للنشر و التوزيع

24- هابرماس ،ي. (2002)، بعد ماركس، ترجمة،محمد ميلاد، ، سوريا ، دار الحوار للنشر و التوزيع.

25- هابرماس ،ي. (2003)،العلم و التقنية كـــ"إيديولوجيا"، ترجمة حسن صقر، ألمانيا، منشورات الجمل.

26- هوركايمر،م. (1990)، النظرية التقليدية و النظرية النقدية ، ترجمة مصطفى الناوي، الدار البيضاء ، عيون المقالات.

27- هوركهايمر،م ادورنو،ت. (2006) ، جدل التنوير: شذرات فلسفية، ترجمة جورج كتورة ، بيروت ، دار الكتاب الجديدة المتحدة .

28- Turner,B. (2006).The Cambridge Dictionary of Sociology, UK, Cambridge University Press

29- Abercrombie,N, Hill,S,. Tuner,S. (2006). Dictionary of Sociology, London, Pinguin Books